المحاضرة الخامسة، الالتزام في الأدب:

تردّدت في الساحة النقدية الحديثة مصطلحات الالتزام والأديب الملتزم، وكانت مثار جدل بين النقاد والأدباء، في مفاهيمها ومضامينها وتوجهاتها الفكرية، وأصحاب هذه الدعوة يتمسكون بمبادئ معينة، يلتزمون بالتعبير عنها ونشر أفكارها والدفاع عن قيمها، وتقريب الجمهور منها، فالالتزام Engagement إذن يعني: "المشاركة في قضايا الجماهير، والعمل على حلّ مشكلاتهم.. كما يعني التعهد والارتباط بتلك القضايا الجماهيرية الخاصة"[1] ، مع تحمّل تبِعات ذلك الالتزام ونتائجه، أمّا الأديب الملتزم، فهو الذي يتقيّد بأهداف معينة، يقصر إنتاجه عليها، فلا يسمح لعواطفه وانفعالاته الذاتية أن تطغى على أدبه، لأنّ ذلك يجعله أديبا غير ملتزمٍ بقضايا جمهوره وصراعاتهم ومشاكلهم داخل مجتمعاتهم الإنسانية.

يرى (محمد غنيمي هلال) أنّ أساس الالتزام "إقرار حرية الكاتب ومسؤوليته في وقت واحد، فبدون الحرية يفقد الكاتب أصالته، فيسخّر أدبه للدعاية أو يلبّي فيه نداء خارجا عن نطاق ضميره ووعيه الإنسانيّ، فيصير هو أداة يحاول بها استعباد قرّائه وتسخيرهم، وهذا هو ما يتردّى به الأدب في هوّة الاستلاب، حيث يصير الأدب غريبا عن نفسه، مملوكا لغيره، فيفقد بذلك جوهره من أنّه دعوة حرّة كريمة أساسها الثقة المتبادلة بين القارئ والكاتب، وبدون المسؤولية تفقد الحرية وجهها الآخر الاجتماعي، وهو الذي تمثل به الضمير الحر لمجتمع منتج"[2] ، وعليه؛ فأساس الالتزام عنده: حرية الكاتب ومسؤوليته وكذا ضميره الإنسانيّ ووعيه الاجتماعي بقضايا جمهوره، ولئن فقد أدبه تلك المزايا والأهداف، فقد بها أصالته ووقع في هوة الاستلاب التي يصبح من خلالها أدبا إلزاميّا مملوكا لغيره.

ارتبطت فكرة الالتزام عند الغرب بإيديولوجيات كثيرة، منها الواقعية الاشتراكية،المناهضة للواقعية النقدية المتشائمة، التي تبنّاها في الأدب كلّ من (إميل زولا) و(فلوبير) وغيرهما،

والواقعية الاشتراكية، مؤثّثة بأفكار الماركسيين، وبنظريات (فيساريون بلنسكي Vissarion Belinski 1848/1811م) و(فريدريك إنجلز Friedrich Engels 1895/1820م)، ومُؤسّسة على فكرة الثورة والتحرّر وقوّة الإرادة الجماهيرية على التضحية والنضال في سبيل الحق والحرية، كما انطلقت الواقعية الاشتراكية من الواقع المادي أو البنية التحتية، وجعلها أساسا للبنية الفوقية، بمعنى أنّ الشروط المادية ووسائل الإنتاج وغيرها هي التي تحدّد شكل الحياة الفكرية والثقافية في المجتمع، وروّادها يؤمنون بأنّ تطور الأدب والفنون رهينٌ بتطوّر المجتمع، كما نوّهوا بالحالة المزرية للأدب في المجتمع الرأسمالي وما يعانيه من ضياع وتقييد وانفصال عن الجمهور.

وبالتالي فالأدب عندهم والفنون عامّة "يجب أن تستمدّ مقوّمات وجودها من تموّجات الحياة اليومية المعيشة، ثمّ تقوم بصقل هذه الحياة اليومية الكادحة وصبغها بالصبغة الفنيّة... كما أنّ الأثر الفنّي تتوقّف أصالته ونبله على مدى إسهامه وتعمّقه في الحياة الطبيعية، وكذا الحياة الاجتماعية.. والمفهوم الواقعي الاشتراكي يؤمن بأنّ المحتوى الفكري الاشتراكي هو الذي يمنح الفنّ الحياة، وبمدى تشرّب هذا الأثر الفنّي للأفكار الشيوعية، وعلى ذلك فالفنّ يكون ملتزما من الوجهة الشيوعية إذا عرف مساره الحقيقي، إذا تدخل في المجتمع كقوّة ثوريّة تعمل على منحه العطاء الثوري"[3] ، فالالتزام من هذا المنطق مرتبط بأفكار الحزب وبمدى تمسّك الأديب بقضايا الجمهور، وقناعته بإمكانية بناء مستقبل أفضل، تسوده قيم التحرر والنضال.

كما ارتبط الالتزام بالفكر الوجودي، الذي يعتبر وجود الإنسان هو الحقيقة المطلقة، لانّ الأشياء لا وجود لها سوى بالإدراك، والإنسان هو الكائن الوحيد المخوّل بالقيام بهذه العملية الإدراكية من خلال وعيه الفردي ومشاركته الاجتماعية الفاعلة، وفي هذا يقول (ديكارت): أنا أفكّر إذن أنا موجود، ويؤكّد الفكرة (سارتر) بقوله أنّ الوجود يسبق الجوهر، بمعنى؛ أسبقية الوجود على الماهيّة، "وإصرار (سارتر) على أنّ الوجود يسبق الماهية، يرجع إلى رغبته في تحرير

الذات ممّا تراكم عليها من قيود المجتمع.. والإنسان يعي حريته حين ينزع نفسه من عادات وتقاليد المجتمع، وهو في هذه اللحظة يحدّد موقفه الحاضر، ويتّخذ باختياره طريق المستقبل بالتزام حرّ، فهو حيال موقف situation، يشعر إزاءه بالقلق الذي يدفعه إلى الالتزام، وهذا الالتزام طوعي لا قسر فيه"[4]، وعليه فالوجودية تقوم على ثلاث مبادئ رئيسة هي: الحرية والمسؤولية والالتزام، وكلّ مبدأ منها له شروطه وقوانينه التي تنظّمه.

وعليه فالالتزام برأي (سارتر): أن يبذل الكاتب أو الأديب جهده في سبيل إعلاء قيم العدالة والحرية والتكافل الاجتماعي في أدبه، وأن يتحمل مسؤوليته تجاه الأحداث دون الانغماس بها، بمعنى أن يحتفظ الأديب بحريته الفردية أثناء تعبيره عن المجتمع، فيكون موقفه بذلك اجتماعيا وأخلاقيا في الآن ذاته، وعلى الأدب الملتزم أن يقدّم القيمة الأخلاقية والاجتماعية على القيمة الجمالية أو الفنيّة.

أمّا الالتزام في النقد العربي، فلم تتّضح معالمه وتتبلور مفاهيمه إلا في العصر الحديث، وإن كانت هناك مظاهرٌ للالتزام عند الأدباء القدماء، غير أنّ النقد لم يوجّه عنايته الكافية لها، وبعد الحربين العالميتين، مطلع القرن العشرين، شهد النقد الأدبي العربي تطوّرا غير مسبوق، في مبادئه واتجاهاته وقضاياه، وكان الالتزام من بين أهمّ القضايا النقدية التي شاع الحديث عنها، لا سيما في ظلّ تنامي الوعي القومي، والتزام الأديب بقضايا النضال والتحرّر، غير أنّ الالتزام في الأدب والنقد العربيين، وجّهته تيارات ومسارات فكرية متعدّدة، نحا بعضها منحى المغالاة والتطرّف.

من هؤلاء نجد (لويس عوض) الذي تجلت نزعته اليسارية في أعماله النقدية، فربط الأدب بالحياة من خلال المفهوم الماركسي، في كتابه: الاشتراكية والأدب، يقول: "مدرسة الفن للفنّ منافية للاشتراكية، لأنّها تعزل الفنان عن المجتمع والحياة... والمدرسة التأثرية منافية للاشتراكية لأنّ نقطة البدء في كلّ أدب اشتراكي وفن اشتراكي وعلم اشتراكي وثقافة اشتراكية هي التسليم بموضوعية الإنسانية، والتسليم بأنّ طلب الأدب لذاته أو الفن لذاته قد تكون نافعة

أحيانا، ولكنها وليدة صدع في الحياة"[5]، فالالتزام عنده، يقتضي توجيه الأدب لخدمة الحياة والمجتمع، لكن دعوته كانت الفنّ للحياة، أكثر من الفن للمجتمع، ويبرّر (لويس عوض) هذا الإطار الفكري الجديد لرؤيته النقدية، "أنّ دعوة الأدب للحياة تحمل في تربتها بذور الفكرة القومية والإنسانية أيضا، وبهذا تكون دعوة الأدب للحياة دعوة اجتماعية ودعوة فردية معا، لأنّها تجعل من الأدب وظيفة من وظائف المجتمع كما تجعل منه وظيفة من وظائف الفرد"[6] ، ويعتقد بعض النقاد أنّ (لويس عوض) له دوافع معينة من نهجه هذا التيار الفكري الغربي، ليمرّر رسائل ظاهرها الالتزام باشتراكية الأدب، وباطنها يحمل نظرة ثقافية مشبعة بالعلمانية والتطرف، لاسيما تجاه اللغة العربية، وقد تبعه في هذا الاتجاه كل من (محمود أمين العالم) و(عبد العظيم أنيس) و(عبد الرحمان الشرقاوي) وغيرهم من النقاد المتأثرين بالواقعية الاشتراكية في الأدب والنقد.

يسير على النهج نفسه، الناقد (سلامة موسى) الذي يعزّز من قيمة الاشتراكية في الفنّ، ويدعو إلى ضرورة الالتزام بها أدبا ونقدا، يقول: "والأدب الاشتراكيّ هو أدب التغير والتطور، والإيمان بالمستقبل، ومكافحة الفقر والجهل والمرض، ومكافحة الاستعمار والاستبداد، هو أدب الشعب الذي يُكتب بلغة الشعب"[7]، مشيرا إلى ضرورة تكييف لغة الإبداع مع ما يصل إليه فهم الشعب وإدراكه، داعيا إلى ضرورة الكتابة بالعامية بدل الفصحى، وفي هذا يقول عنه (رجاء عيد): "فهو يبدأ بدعوة ظاهر فيها الرحمة، دعوة الاهتمام بالشعب، والكتابة بلغة الشعب، ولم يحدّد لغة الشعب التي يقصدها.. فهو ما دام قد جعلها في مقابل لغة الأدب العربي فلابدّ أنّه يدعو إلى الكتابة بالعامية"[8]، كما أعاب (سلامة موسى) على الأدب العربي

القديم تجاهله كلمة الشعب متناسيا أنّه قال بعصريتها في بعض مقالاته، ولعلّ دعوة (سلامة موسى) إلى اشتراكية الأدب، وضرورة التزامه بقضايا الشعب، تحمل هي الأخرى في ذاتها بذور التطرف والتعصب ومعاداة العربية وفكرها وأدبها.

أمّا منهجه في التزام الأدب، فقد قصره على الجانب الاجتماعي، يقول: "والنقد السليم للأدب هو النقد الاجتماعي، أي أنّ الناقد يسأل: ما هي قيمة هذا العمل الأدبي في المجتمع؟ وهل هو يحضّ على الحياة والصحة والخير، أم يحض على الانتحار والمرض والشر؟"[9]، مؤكّدا على أهمية التزام الأديب بقضايا الشعب أولا وأخيرا.

من جانب آخر، دعا (محمد مندور) إلى إقامة التزام يجمع بين الواقعية الاشتراكية والفلسفة الوجودية، فيما أسماه بالمنهج الإيديولوجي، هذا المنهج الذي يرى أنّ الأدب لم يعد هروبا من الواقع ومشاكل المجتمع، بل هو تشخيصٌ حيّ لواقع فعليّ تتجاذبه الصراعات المختلفة، ومهمّة الأديب التعبير عن معارك الحياة بكلّ موضوعية، يقول (مندور): "وعلى أساس كلّ هذه الحقائق، نرى المنهج الأيديولوجي في النقد يناصر اليوم عدّة قضايا أدبية وفنيّة كبيرة مثل قضية الفن للحياة وقضية الالتزام في الأدب والفنّ... ومن الواضح أنّ كل هذه القضايا ترتبط بواقع الحياة المعاصرة وقضاياها ومعاركها"[10] ويحرص (مندور) على أنّ المنهج الأيديولوجي لا يسلب الأديب حريته، وهدفه المنشود هو الاستجابة للقيم الاجتماعية، إن أدرك الأديب مسؤوليته وحدود حريته، دون إهمال الجانب الجمالي والفني للأدب.

ردفا على ما قيل، وقف (محمد النويهي) موقفا معتدلا من مسألة الالتزام في الأدب، إذ يرى أنّه من الضروري الجمع بين فردية الأديب ومشاركته القضايا الإنسانية دون إهمال الجانب الجمالي في الأدب، يقول: "إنّ عددا متزايدا من كُتّابنا ونقّادنا في هذه الأيام، حين ينادون بالالتزام في الأدب، يسرفون في تفسير هذا الالتزام، ولا يفهمونه على حقيقته، حتى ليغلبون

على الأدب أهدافا ثانوية وينسون هدفه الأول، وهو أن يعبّر عن عاطفة الأديب نفسه"[11]، فهو لا يغلّب الجانب الجمالي في الأدب بدعوى الفن للفن، ولا ينكر مسؤولية الأديب الأخلاقية والاجتماعية، بل يريد القول بأنّ الأدب فنّ إنسانيّ بكلّ ما تقتضيه الكلمة من مبادئ وأسس.

على نحوٍ مخالف لما سبق طرحه، يرفض (العقاد) مبدأ الالتزام الذي يطغى على جمالية الإبداع، ويرى فيه بدعة من بدع الاشتراكية، وهو لا ينكر الالتزام في حدّ ذاته، وإنّما يريد القول بأنّ رسالة الأدب لا يمكن أن توجهها الواقعية الاشتراكية أو الوجودية أو غيرهما، وإنما حرية الأديب في معالجة شتى المواضيع الإنسانية هي التي توجّه رسالة الأدب، كما أنّ (العقاد) "لا يهمل الهدف الاجتماعي بل إنّه فقط يربط العمل الفنّي بالجمال، وهذا الجمال كذلك مرتبط بكيان المجتمع، عن طريقه سيبعث في المجتمع الإحساسات الصادقة والسليمة بالفنّ والجمال وفهم الحياة"[12]، فالالتزام عند (العقاد) يأخذ اتّجاها مختلفا، حيث إنّه بوسع الأديب التعبير عن المجتمع، وبإمكانه الدعوة إلى الإصلاح والنهضة، لكن لا يمكن للأديب الالتزام بتلك القضايا تمام الالتزام، لأنّه حرٌّ في مواقفه وفي تعبيره، والتعبير في حدّ ذاته غاية مثل غيرها من الغايات، كما أنّ رسالة الأدب الأولى والأسمى؛ هي الجمال.